قنديل أم هاشم

حينما أشرف اسماعيل على الموت ، وتعب قلبه ، واحتبست ضحكاته فى حلقه أصبحت عيناه تقولان للناس : « ليس كل ما فى الوجود أنا وأنت ، هناك جمال وأسرار ومتعة وبهاء ، السعيد من أحسها » .

هذه النغمة المطمئنة الجذلى ، التى انتهت بها حياة اسماعيل ، كلفه الوصول اليها جهاد فكرى وروحى أوشك أن يعصف بحياته ، أودى بعقله أو كاد ، وشرده ، بعيدا عن أسرته وجعله يكفر بالوطن والدين والأهل والقوم ..

فقد كان اسماعيل فتى قرويا وان عاش فى المدينة . نشأ فى حراسة الله ثم أم هاشم ، ولم تخرج حياته قط عن الحى والميدان .. كانت أقصى نزهته أن يخرج الى المنيل ليسير بجانب النهر أو يقف على الكوبرى ، فاذا ما انطلق فى جولته المسائية يطوف بحى السيدة لفته جموع الناس بالحى العتيد ، فالتف معها كقطرة المطر يلقفها المحيط : اندماج فى

البيئة ، الانفصال الهادىء منه ضرب من المستحيل ، والتحام مع الجمع لا خلاص منه دون تمزق وانهيار .

ولكن الانفصال والتمزق لم يئن أوانهما بعد ، فلم يزل اسماعيل الفتى القروى المتدين وما فتىء يزور الشيخ درديرى خادم مقام الست فى أغلب الليالى بعد صلاة العشاء ليتندر بحديثه ، فيحكى له درديرى عن ليالى الحضرة حينما تظهر الست يحف بها عن يمين وشمال الامام الشافعى والسيدة سكينة والسيدة فاطمة النبوية وقد اجتمع الكل للنظر فى ظلامات الناس .

وما زال اسماعيل ينظر الى قنديل أم هاشم ، فيجده وسنانا كالعين المطمئنة ، رأت وأدركت واستقرت .... يراه فيرى فيه نور ايمانه هو فلا القنديل قنديل ولا نوره نور . انه يطفو فوق المقام كالحارس مبتعدا تبجيلا أما نوره فلا ظل له ولا ظلام معه . هو نور الله .. يوقد من شجرة مباركة .

وينتزع الفتى القروى من أرضه وناسه ، يدفعه طموح أبيه وتطلعه هو الى مستقبل أرحب وأرغد ، الى السفر الى أوروبا فتحدث أحداث فى منزله الذى لا تنقطع فيه تلاوة القرآن . تصطرع الأفكار والأحاسيس فى روح أبيه حتى ينقذه الهاتف فى المنام بقوله : « توكل على الله » : وتركب

أمه رعدة المحيط وتأخذها رجفة برد الشمال . بلاد بره عندها أرض تغطيها الثلوج يؤدى اليها سلم عال ، أما القريبة اليتيمة فاطمة النبوية ، فتسمع أن نساء أوروبا يسرن شبه عاريات فتخشى على اسماعيل منهن الفتنة .

والفتى نفسه يتزود ليلة السفر من مقام أم هاشم ومن قنديلها المضىء بنور الروح، وهناك يرى تلك الخاطئة السمراء، التى كان يحسها أكثر مما يراها منذ أدركه البلوغ ، يراها تتعلق بسور الست تسألها بحق ما هى ستارة على الولايا أن تشفع لها عسى الله أن يتوب عليها .. لم يكن يدرى لماذا يهتز لمرآها هى دون سائر النساء ، لعله ايمانها الساذج البرىء وتعلقها المؤثر بأستار الحياة الشريفة .

ويسافر اسماعيل الى أوروبا ، وآخر من يذكره من القاهرة وقفة الشيخ درديرى وحديثه الثرثار فى صمت المقام، وتحت ضوء القنديل .

* * *

سبع سنوات قضاها اسماعيل فى انجلترا ، تعلم فيها الى جوار طب العيون أشياء كثيرة لقنته اياها امرأة ولا كل النساء . قالت له مارى : ان العطف ضعف ، والحب قيد ، والحياة مجادلة .. وهبته نفسها وقامت كأنما قد وهبته كتابا يقرأه . أخذت تقطع بسكاكين كلامها كل رابطة حية

تغذى عليها الى ذلك الوقت ، واستيقظ ذات يوم فاذا بروحه خراب : الدين خرافة ، وقوة الفرد فى انعزاله وفرديته .. أما الاندماج ، أسلوب اسماعيل فى العيش ، وسر قوته الروحية والنفسية — فضعف ونقمة .

هدمت مارى كل القيم الثمينة ولم تترك له الا أصدافا براقة لم تستطع روحه الجائعة أن تفعل بها شيئا ، أصدافا مثل جمال الطبيعة والفن والموسيقى ومغانم روحية أقل من الايمان خطرا .

ومن يومها واسماعيل يخوض معركة التمزق والاتصال .. والعجيب أنه منذ بدأ ينفصل ، قوى شعوره بالاتصال ، الاتصال بأهله وبنى وطنه وبلاده .. كان وهو فى مصر يشعر بأنه ذرة اندمجت وسط الرمال .. أما الآن فهو حلقة فى سلسلة طويلة تشده وتربطه ربطا الى وطنه : وقال لنفسه : قد علمتنى مارى أن أستقل بنفسى .. ولكنها فى الحق لم تزد على أن بصرته بنفسه ، وأثارت وعيه بمكانه من وطنه ، ومكان وطنه منه ومكانهما جميعا من العالم . غيرت مارى من طبيعة حبه لبلاده فجعلت هذا الحب واعيا عالما بعد أن كان غافلا غريرا .

لهذا نجده — هذا الذى يريد أن ينفصل — يعاهد نفسه

ألا يرى منكرا فى مصر الا دفعه . سيواجه سوءات بلاده بالعلم والمنطق ، وكان قبلا يراها من زاوية الايمان فلا يراها !

ويعود اسماعيل الى داره . فينكر منها ضيقها وظلامها وضوء مصباح البترول فيها . تبدو له بالية الأثاث ، كأنما أهلها مهاجرون فى دار غربة ، وأمه .. طيبتها سلبية .. وأبوه اشتعل رأسه شيبا وظهرت فى نظراته سمات الاعياء وطول الصبر . وثمة فتاة شابة بضفيرتين وأساور من الزجاج الرخيص ، قروية من أعماق الريف .. انها فاطمة النبوية .. الفتاة التى سيزوجونها له ، علم فى التو أنه سيخون العهد الذى قطعه على نفسه قبل أن يتزوجها .

ان فاطمة رمداء ، وهذه أمه تدعوها لتقطر لها فى العينين الموشكتين على التلف نقطا من زيت قنديل أم هاشم ! يا لهول الطعنة الموجهة الى محراب العلم وحارسه الأمين طبيب العيون اسماعيل ! . ها هو ذا يواجه فى التو عينة بشعة من تلك الخرافات التى آلى على نفسه أن يدفعها عن وطنه ومواطنيه بالعلم والمنطق ، وأين يلقاها أول ما يلقى ؟ . فى بيته هو ! ..

ثار اسماعيل ثورة مفاجئة عارمة ، ثورة لها دوى مريع ،

هزته هو قبل أن تهز من حواليه .. فدفعت الأم الى التضاؤل والابتعاد عن وحيدها العائد ، وحفزت الأب الى الاحتجاج وانكار كفر الولد الآيب من سفر طويل .

وطوح الطبيب الشاب بزجاجة الزيت الى الشارع . وأتبع هذا الكفر بكفر أشد هولا فأعمل عصا أبيه فى قنديل أم هاشم . ذلك الذى كان نورانيا قبل أوربا ، فأصبح اليوم بربريا متربا ، قد علق به الهباب وفاحت منه رائحة خانقة .. وكان أشد ما فى ثورته ايلاما أنها لا طائل تحتها .. فهى ثورة على نفسه بقدر ما هى ثورة على الغير . أبدا لا يستطيع اسماعيل الانفصال كما لقنته مارى ، فهذا الذى يريد أن ينفصل منه هو خاصة نفسه ، وذوب قلبه — عبثا يحاول أن يقطع طريقا وراء طريق يتوهمه مفضيا الى الخلاص .. انه بعد طول الضرب فى تيه نفسه يعود من حيث بدأ : فى مواجهة الأزمة تماما . وصوت من أعماق قلبه يقول له : خلاصك هنا فى هذه الأرض . ومع هؤلاء الناس . لا الهرب الى أوروبا الأصلية والعيش فى ريف انجلترا الجميل مجد ، ولا الهرب الى أوربا المحلية فى بنسيون مدام افتاليا قادر على شفاء ما بنفسه من آلام ..

لا جدوى كذلك من علاجه لعينى فاطمة النبوية .. انه

لا يعالجها بل يحاول عن طريقها أن يثبت للملأ فضل ما لقنته اياه أوربا من علم حديث ، يعالجها لا حبا فيها ، ولكن تأكيدا لذاته ، وابرازا لتفوقه .. وتكون النتيجة أن تتفاقم حالة فاطمة لأن المريض لا يؤمن بالطبيب . ولأن الطبيب يدوس بأقدام الاحتقار الغليظة انسانية المريض .

ويهل رمضان فيتصالح اسماعيل مع روحه ، يسأل نفسه وقد رأى الكائنات والأشياء من حوله تكتسى ثوبا جديدا : لماذا عدت خائبا من أوربا ، وجعبتى محشوة بالعلم ؟ وسرعان ما يجيئه الجواب : « لقد حاولت أن تبقى أنت ، وتلغى من الوجود سائر الناس ، حاولت أن تنفصل وأنت لا تملك الا الاتصال » .

المصريون ليسوا مجرد جنس سمج ثرثار أقرع أمرد عار حاف .. الى آخر ما خلعه عليهم فى قمة ثورته ، بل هم كذلك شعب واحد يربطه رباط واحد ، هو نوع من الايمان ، خلقته مصاحبة الزمان والنضج الطويل على ناره ، شعب حافظ على طابعه وميزته رغم تقلب الحاكمين .

هذا الشعب يقدم له الأرض الصلبة التى افتقدها منذ زلزله الاتصال بمارى وأفقده رشده . على هذه الأرض

الصلبة ينبغى لاسماعيل أن يقف وينظر ، ثم يبنى ويقيم ... ها هنا صخرة النجاة حقا لمن أراد النجاة .

وتحل ليلة القدر ، فيتصالح اسماعيل مع شكل الايمان ، كما تصالح من قبل مع الايمان نفسه ، يدخل مقام الست مطأطىء الرأس ، فيرى المقام وقد زينته خمسون شمعة ، والخاطئة السمراء جاءت توفى النذر . لقد تاب الله عليها بعد سبع سنوات من الصبر ، وها هى ذى تستقبل الحياة الشريفة بشمعات خمسين تنير بها المقام .

وتقبل اسماعيل زيت القنديل هدية من الشيخ درديرى، ثم خرج الى ميدان السيدة وهو يخاطب الناس فى نفسه : أن تعالوا الىّ جميعا فانى قد قبلتكم بكل قذارتكم وجهلكم وانحطاطكم ، فأنتم منى وأنا منكم ، ثم عاد الى الدار فعالج فاطمة وشفاها ثم تزوجها وأنسلها خمسة من البنين وستا من البنات وأصبح طبيب عيون يداوى الفقراء بعلم أوربا ووسائل من صنعه هو .

وحينما أشرف على الموت كانت عيناه تنطقان بالسعادة وتقولان للناس : « ليس كل ما فى الوجود أنا وأنت ، هناك جمال وأسرار ومتعة وبهاء .. » .

ومات اسماعيل وهو يبشر بالقبول والاتصال وغرس الأقدام الصلبة بقوة فى الأرض الطيبة : أرض مصر .

* * *

هذه هى الحكاية العذبة التى قدمها لنا يحيى حقى فى « قنديل أم هاشم » وقص علينا فيها قصة العذابات الروحية الجارحة التى كان يلقاها جيل سابق من المثقفين المصريين ، نهل من نبع الحضارة الغربية المتقدمة ، ثم عاد الى بلاده فوجدها على حال من التأخر والجهل يقطع نياط قلب كل محب ، ويوهن عزيمة كل مكافح .

انه جيل ثائر مكافح ، وكل اليه تاريخ بلادنا مهمة خطيرة ، هى سرقة النار من آلهة العلم الحديث ، والعودة بها الى بلاد نامت طويلا فى ظلام الحكم التركى ، وتجمدت أطرافها فى زمهرير الجهل الذى كان ينشره على ربوعها الواحد بعد الآخر من المستعمرين .

وعاد الأخيار من هؤلاء الطلائع وفى أيديهم القوية قبسات من النار ، كان لنورها دوى كبير فى البلاد وفى أرواح هؤلاء الطلائع أنفسهم .. لقد أصاب كثير منهم العشى فمالوا أولا الى انكار كل شىء ، ورفض كل تراث . ونظروا الى شعبهم نظرة المحسن المتفضل ، ولكن ما لبث العشى أن انحسر ،

وأدرك هؤلاء الأخيار أن رقيهم ورقى بلادهم لا يمكن أن يقوم الا على أساس صلب من تراث الشعب وتاريخه وأسلوبه فى الحياة ، وأن المعرفة التى عادوا بها لن تؤتى ثمارا حتى تزرع زرعا فى البيئة المصرية ، بأيد مصرية ووسائل مصرية حتى اذا ما أنبتت كان النبات قبسا من حضارة الانسان اتخذ الطابع القومى المحلى .

وقد اختار يحيى حقى لحكايته الأسلوب الرمزى .. « فقنديل أم هاشم » تعنى فى المحل الأول هذا الذى تقدم سرده من حوادث حدثت لأفراد بعينهم ، وتعنى على مستوى أعمق شيئا آخر أبعد أثرا .. فاسماعيل هو روح مصر الناهضة المتوثبة — وفاطمة النبوية هى مصر التقليدية المستندة على أساس صلب من تاريخ وتراث كبيرين ، ومارى هى أوربا الحديثة الفخورة بعلمها المادى ، دون ايمان أو اكتراث كبير بالانسان .ومقام الست هو الايمان ، والقنديل شكل الايمان، ومعنى الحكاية على هذا المستوى أن مصر ترفض الروح الجديدة اذا أريد بها أن تفرض عليها فرضا ميكانيكيا من الخارج، ولكنها تقبلها اذا ما جاءت اليها تواقة خلاقة ، تحترم التراث والأسلوب ، وتسعى الى الاندماج دون التسلط .

لهذا لم تستجب عينا مصر « فاطمة النبوية » للروح

المتغطرسة (اسماعيل الثائر المتعنت) بل تفاقم خطبها وأصيبت بالعمى ، فلما تنازلت الروح الجديدة عن غرورها أمكن للعلم المسلح بالايمان (معنى الايمان هنا الايمان بالشعب وتاريخه وتراثه .. الخ ..) أن يحقق المعجزة ويعيد لمصر نور عينيها ، وأمكن لمصر أن تتزوج الروح الجديدة وتتفاعل معها .

* * *

والذين كانوا ينتظرون من اسماعيل أن يسير قدما الى الثورة بالسلاح والشعار والقلم مخطئون ايما خطأ . انهم يطلبون عنده ما لا يملكه ، وما لا يستطيع تقديمه . انما اسماعيل ثائر فرد ، أقصى أمانية أن ينشر الخير والتقدم فى دائرة من الناس تستطيع قوى الفرد أن تبلغها .

وسبيل اسماعيل لنشر الخير سبيل واحد ، لم يستطع قط تغييره ، سواء قبل سفرة الى أوروبا ، أو أثناء مكثه هناك ، أو بعد أوبته . قبل السفر كان يعطف عطفا خاصا على الخـَطأة والعجزة وقليلى الحيلة . (ولنذكر فى هذا الصدد موقفه من المومس السمراء) فلما سافر الى انجلترا جعل « يطيل جلسته بجانب الضعفاء من مرضاه ، ويخص بعطفه من يلحظ فيه آثار تخريب الزمن للأعصاب والعقول » ..

ولاحظت مارى هذا الاتجاه المسيحى فيه — الاتجاه الى التنزل الى مستوى المرضى والعجزة والخاطئين بقصد انقاذهم فقالت تعنفه : « أنت لست المسيح بن مريم ! ... هؤلاء الناس غرقى يبحثون عن يد تمد اليهم ، فاذا وجدوها أغرقوها معهم ! » .

وقد انتفض اسماعيل لهذا الذى سمعه انتفاضة كبرى ، وخيل اليه أنه قد اقتنع بهذا المذهب الأنانى فى العيش . ولكنه ما ان تخلص من حبه لمارى حتى وجد قلبه نهبا مستباحا لحب قوى مريد هو حبه لمصر . قال لنفسه وهو يتهيأ لاستقبال الوطن : « مصر عروس الغابة لمستها ساحرة خبيثة بعصاها فنامت .. عليها الحلى وزواق ليلة الدخلة . لا رعى الله عينا لم تر جمالها ، ولا أنفا لا يشم عطرها ! متى تستيقظ ؟ متى ؟ » ..

وكان اتصاله بمارى قد ترك فى روحه آثرا غريبا متناقضا . فهو يحب مصر حبا جارفا يشده اليها شدا ، وهو فى نفس الوقت ضجر ببنى وطنه نافر منهم أشد النفور ، وكلما زاد الحب فى قلبه ، زاد معه نقيضه . ان اسماعيل لا يكاد ينفر من بنى وطنه حتى يرى نفسه منجذبا اليهم . انهم : « أهله وعشيرته ، والذنب ليس ذنبهم .. انه حدق فى

الموت مرارا ، وجس المجذوم ، واقترب فمه من فم المحموم . ترى هل ينكص الآن عن لمس هذه الكتلة البشرية التى لحمها من لحمه ودمه من دمها ؟ » .

وسرعان ما يجيب اسماعيل على السؤال : بل سأقرب المجذوم وألمس المحموم وأحدق بكل قوة باصرتى فى هذا الموت الزائف الذى ماتته عروس الغاب ، سأحدق بقوة علمى ، وأعرض جانبا عن الخرافات والأوهام والعادات . وسيكون بينى وبين المصريين احتكاك ونضال طويلان .

وهكذا انهارت دون ما اشتباك تعاليم مارى المسبحة بقوة الأنانية وعظمة الفرد المستبد ، وقرر اسماعيل بمجرد النظر الى العروس النائمة أن يمد اليد للغرقى لينقذهم ، لا يخشى فى ذلك على نفسه الغرق ، ورأى فى هذا الذى قرره معركة جعل يتشوق اليها . بل لقد « سرح ذهنه فاذا هو كاتب فى الصحف أو خطيب فى أحد المجتمعات ، يشرح للجمهور آراءه ومعتقداته » .

* * *

وما حدث بعد هذا معروف ، سبق الخوض فيه : ثار اسماعيل ثورة مدوية مدمرة ، اكتشف خلالها أشياء كثيرة . اكتشف أنه لا يستطيع أن يثور على بنى وطنه وينعتهم

بالجهل والتأخر دون أن يصيبه هو من الثورة نصيب ، فجهلهم هو جهله وتأخرهم هو مسئول عنه ، كذلك أيقن اسماعيل أنه لا يستطيع أن يفر من الموقف المؤلم بالهرب الى أوروبا ، فلو قد فعل ما استطاع أن يعيش سعيدا وعروس الغاب الجميلة لا تزال نائمة نومها الثقيل . أما البقاء فى مصر وتجاهل متاعبها وآلامها بالعيش فى الأوساط الأجنبية ، فأمر لم يطق الاستمرار فيه طويلا ، بعد أن كادت تفقأ عينيه حقيقة مؤلمة : تلك أن الأوربيين فى مصر « من طينة أخرى غير التى رآها فى أوروبا » ، وأنهم لصوص نهمون يعيشون على استغلال أمثاله ممن تربطهم بأوروبا روابط ثقافية وفكرية عديدة يلتمسون لها غذاء واستمرارا فى أشخاص هؤلاء الأوربيين المحليين .

لم يعد أمام اسماعيل الا أن يبقى فى مصر ويجد لنفسه وسيلة تنقذه من البوار وتخلص روحه وعقله من دمار شامل. لو كان رجلا آخر ، لسعى لتحقيق ما سرح اليه ذهنه أول قدومه الى البلاد ، فأصبح كاتبا فى الصحف ، أو خطيبا فى أحد المجتمعات ، يشرح للجمهور آراءه ومعتقداته . اذن لوجد فى هذا العمل العام وسيلة لاعادة تشكيل المجتمع على أسس أقرب الى الرقى والتقدم ولكن اسماعيل لم يخلق قط

لهذا العمل بدليل أن هذا اللون من ألوان الكفاح من أجل البلاد التى يحبها ظل مجرد خاطر فى ذهنه لم يقدر له التحقيق.

وفى نفس الوقت فشل البطل فى فرض آرائه وأفكاره على الناس فرضا تعسفيا لا يسعى الى تعاون أو اقناع ، فلم يستجب لهذا الأسلوب المنفر حتى خاصة أهله . أما الناس عامة فقد أوشكوا أن يفتكوا به وهو يهاجم معتقداتهم وصور ايمانهم ؛ ذلك الهجوم البربرى الذى جرى فى مقام السيدة زينب .

ماذا يفعل اذن ؟ فى خضم الصراع الذى ثار فى داخل نفسه وخارجها أخذت صورة موقفه الجديد تتضح . ليس كل ما فى أوروبا خيرا ، وليس ما فى مصر شرا كله . فى أوروبا « أبنية ضخمة جميلة ، وفن راق ، وأناس وحيدون فرادى ، وقتال بالأظافر والأنياب ، وطعن من الخلف ، واستغلال بكل الوسائل . مكان الشفقة والمحبة عندهم بعد العمل ، وفى مصر على كثرة ما بها من شرور ، ميزات متعددة ، شعب عريق متماسك ، وأرض صلبة ، ووصول فيه طمأنينة وسكينة ، والسلاح مغمد » .

ماذا لو جمع بين الحسنيين ؟ ماذا لو أعطى مصر علم أوروبا ، وحافظ لها على ما خلص لها من خير ؟ لماذا لا يسعى

الى تغيير الناس بأن ينزل الى الدرك الأسفل الذى هبطوا اليه ، ثم يسعى الى الارتفاع بهم رويدا ، رويدا ؟ هنا تنبهت فى نفسه تلك الناحية التى تسعى الى المماشاة ، والتوفيق . هنا عاد الى سابق عادته ، تلك التى كانت تنزع به الى أن يجلس الى العجزة والمرضى والخاطئين ، ويماشى ، كرما منه ، منطقهم المريض بمنطقه السليم . هنا عاد الى نفس الموقف الذى حاولت مارى أن تزحزحه عنه حينما صرخت فى وجهه :

« أنت لست المسيح بن مريم » .

بلى . لقد تنبه فيه المسيح ، وخرج من فوره الى الميدان يخاطب الناس ، فى قلبه قائلا : « تعالوا جميعا الى ! فيكم من آذانى ومن كذب على ، ومن غشنى ، ولكن رغم هذا لا يزال فى قلبى مكان لقذارتكم وجهلكم وانحطاطكم فأنتم منى وأنا منكم . أنا ابن هذا الحى . أنا ابن هذا الميدان . لقد جار عليكم الزمان وكلما جار واستبد ، كان اعزازى لكم أقوى وأشد » .

واعتزم اسماعيل بعد هذا أمرا ، كان قد لاحظ أن فاطمة لم تستجب لعلاجه ، لأنها لم تؤمن به . فأتاها بشىء تؤمن به هو زيت القنديل . وضعه الى جوارها وبدأ علاجه الطبى

العلمى : لم يستعمل الزيت قط وسيلة علاج وانما ضمن به حسن نية المريض وتعاونه .

وكان فى هذا تنازل لاشك فيه ، ولكنه ليس تنازلا عن المبدأ ، وانما عن الوسيلة . لم يكن فيه دعوة للخرافة ، بل محاولة لتطويق الخرافة ، وعزلها ثم تجاوزها واحلال العلاج الطبى العلمى محلها . والدليل على أن اسماعيل لم يستسلم للخرافة أنه لم يكتف بعلاجه العلمى لفاطمة بل قال لها أيضا : « وفوق ذلك ، سأعلمك كيف تأكلين وتشربين ، وكيف تجلسين وتلبسين ، وسأجعلك من بنى آدم ! » . أى أنه رسم لها برنامجا كاملا للتغيير والتطوير نهايته أن تصبح فاطمة آدمية مكتملة الانسانية .

ودليل آخر على عدم استسلام اسماعيل للخرافة أنه لم يسترد ثقته بنفسه كطبيب الا بعد انتهاء علاجه الطويل الشاق لعينى فاطمة . « ولما رآها ذات يوم أمامه سليمة فى عافية فتش فى ذهنه وقلبه عن الدهشة التى كان يخشاها فلم يجدها » ولو كان الطبيب قد آمن بخرافة الزيت والقنديل ، لما كان فى حاجة الى أن يصبر ويكافح كل هذا الكفاح حتى تعود اليه الطمأنينة وتذهب عنه الدهشة .

ما فعله اسماعيل بعد هذا يلقى ضوءا آخر على طبيعة

ثورته ومداها . لقد افتتح عيادة فى حى البغالة بجوار التلال، لعلاج مرضى العيون من الفقراء ، نظير قرش واحد لا يزيد . كان الحفاة والحافيات يترددون عليه فيعالجهم « بوسائل لو رآها طبيب أوروبا لشهق عجبا ، استمسك من علمه بروحه وأساسه وترك المبالغة فى الآلات والوسائل واعتمد على الله ، ثم على علمه ويديه » . لقد قرر اسماعيل أن يلائم بين علم أوروبا والبيئة التى يستخدم فيها هذا العلم . وضع علمه ومعرفته فى خدمة الفقراء وعالجهم علاجا يحتفى بالهدوف أكثر من احتفائه بالوسيلة .

وهو علاج علمى دائما ، ولكنه لا يخضع لاستبداد الآلات والوسائل وانما يؤمن بضرورة تجنيد قوى المريض نفسه وقدرة جسمه على التماثل للشفاء ويستخدم هذه القوى الروحية حليفا طبيعيا للعلاج المادى .

من أجل هذا نجح فى عمله ، وطار صيته كطبيب واكتظت داره بالفلاحين والفلاحات يجيئونه بهدايا من البيض والعسل والبط والدجاج .

وهكذا تحولت ثورة اسماعيل الفردية الى خطة عمل وأسلوب حياة ، يهدفان الى نشر الخير بين الناس ، ومعاونتهم على تحمل أعباء العيش من يوم الى يوم ، وثورة هذا مصيرها

هى بكل تأكيد ثورة محدودة . ولكن هذا لا ينبغى أن يدفعنا الى احتقارها أو حتى التقليل من قيمتها ، ان فيها من العوامل الايجابية ما يعتبر دفعة لا شك فيها لعجلة التقدم : فيها اتجاه واضح نحو الشعب ، ومحاولة جديرة بالثناء لجعل تقدمه المادى يسير جنبا الى جنب مع حياته الروحية .

انها ثورة فريق من الناس لم يرزق القدرة على العمل الجماعى المنظم ، فوضع كل ما لديه من امكانيات فى خدمة أكبر عدد ممكن من الناس . وما هذا بالشىء القليل .. !!

ان قنديل « أم هاشم » حكاية رمزية تقدمية بكل ما فى هذه الكلمة الأخيرة من معنى ... انها تنادى بالعلم مع احترام الانسان ، وتدعو الى أن يخضع التطبيق لظروف البيئة المادية والروحية وتاريخها وتراثها . وهى الى هذا تهاجم الفردية والانعزال ، وتبشر بدفء الاندماج وتنصر الاتحاد على الأنانية والحرية الزائفة . وتحتفى بكل من الايمان الساذج « الخاطئة السمراء » والايمان المركب الذى هو حصيلة صراع وعذاب طويلين (ايمان اسماعيل الأخير) ، لأن كلا منهما يؤدى الى الارتفاع بالانسان ، الى الحياة الفاضلة : حياة العمل والانتاج وحب الغير .

ويحيى حقى يعبر عن جميع هذه المعانى المتقدمة تعبيرا فنيا رائعا أنيقا ، يرتفع دوما فى تركيزه وحرارة عاطفته الى مرتبة الشعر ، حتى ليصح أن يقال ان « القنديل » قصيدة طويلة على غرار قصيدة اليوت المعروفة « الأرض الخراب » وأن تفاوت الهدف والمضمون .

— ٢ —

فى التكنيك

لن نستطيع أن نفهم ما يدور فى « قنديل أم هاشم » حق الفهم حتى ندرك حقيقة بعينها ألا وهى : أن كل شىء فى هذه الحكاية مجند لابراز أحداث الحياة الروحية التى يحياها اسماعيل . ان أهم ما يحدث فى « القنديل » يتخذ له مكانا فى روح اسماعيل ثم ينعكس على ما يحوطه من أشخاص وأشياء ، فيلونه بلون اللحظة الروحية التى يحياها البطل .

* * *

تتضح أهمية هذه الحقيقة تماما حينما تتعرض لمناقشة فنية « قنديل أم هاشم » . ذلك أن الانتقال من المستوى الواقعى لهذا العمل الى المستوى الرمزى يتم وفقا للأحداث الروحية التى يمر بها اسماعيل . فان كان اسماعيل راضياً مطمئنا فالقنديل « وسنان كالعين المطمئنة » ، اشعاعه كاشعاع وجه وسيم لأم ترضع طفلها فينام فى أحضانها . بل ان سلسلة هذا القنديل لا وجود لها فى الواقع . انها « وهم وتعلة »

أما نوره فليس كالنور الذى نألفه : « كل نور يفيد اصطداما بين ظلام يجثم وضوء يدافع ؛ الا هذا القنديل فانه يضىء بغير صراع ! » ..

أى أن القنديل فى هذه اللحظة المطمئنة التى يعيشها اسماعيل يصبح رمزا لايمانه .. فيكون من الواجب ابراز أهميته الروحية بينما يتراجع وجوده الواقعى الى الوراء . لهذا يجرده الكاتب من كل ما يربطه بالواقع ، كالسلسلة والخصائص الطبيعية للضوء .. وينكر عليه حتى وجوده فى المكان والزمان ، فهو عنده لا شرق ولا غرب ولا نهار وليل ولا أمس ولا غد .

فاذا كان الموقف موقف انفجار روحى عنيف كذلك الذى يثور فى نفس اسماعيل عقب عودته من أوروبا واصطدامه بجهل مواطنيه وعجزهم تراجعت القيمة الرمزية للقنديل ، فاختفت خصائصه وطفا القنديل نفسه على السطح، وأصبحت الصورة التى تلقاها العين لدى النظر الخارجى صورة قنديل واقعى قد علق التراب بزجاجة ، واسودت سلسلته من هبابه ، تفوح منه رائحة احتراق خانقة ، أكثر ما ينبعث منه دخان لا بصيص ضوء .

فى هذا الوصف الواقعى للقنديل لم يذكر المؤلف السلسلة التى أنكر وجودها من قبل وحسب ، بل زاد عليها الزجاج والهباب والدخان . لقد أغلقت روح اسماعيل أبوابها ونوافذها واختبأت وراء الحجب ، فلم يعد قادرا على النظر — الا بعينيه — أصبحت نظرته قاصرة على السطح ، كل عملها أن تبصر .

وهذا الذى يحدث للقنديل من تذبذب بين المستوى الواقعى والمستوى الرمزى يتكرر فى حالات أخرى كثيرة . المصريون مثلا فى حالة الخمول الروحى لاسماعيل « صورة متكررة متشابهة اعتادها فلا تجد فى روحه أقل مجاوبة .. انه ليس منفصلا عن الجمع حتى تتبينه عينه » فاذا ما ثار الطبيب العائد من أوروبا على بنى وطنه فهم فى نظره « أشلاء ميتة تطبق على صدره وتكتم أنفاسه وتبهظ أعصابه » . ويصطلح اسماعيل مع مواطنيه فتعود نظرته المحبة تتريث على الجموع فتحتملها .. وتنطق له الوجوه من جديد بمعان لم يكن يراها من قبل .

الواقع المادى اذن يأتى فى المقام الثانى بعد الواقع الروحى لاسماعيل ، يخضع له خضوعا تاما ، ويتشكل به .

وهذه الحقيقة بدورها تستتبع ، نتائج فنية معينة هى التى تحدد طابع القنديل .

* * *

من هذه النتائج أن المؤلف، يختزل الوقائع المـادية فى قنديل أم هاشم الى الحد الأدنى الذى لا نقصان بعده . وهذا الاختزال يعطى عمله الفنى ميزتين على الأقل . أما الأولى فهى التركيز الشديد وسرعة الحركة . وأما الثانيـة فهى ازدياد وضوح الحركة الروحية فى الحكاية ، لأنه لا عائق أمام هذه الحركة من وصـف مادى أو أحـداث تمنعها من أن تبين النـاس .

يضاف الى هذين العاملين ، أن يحيى حقى كفنان يميل الى التعبير الشعرى ، أى التعبير بالصورة ، وهذه هى أشد الوان التعبير تركيزا وأكثرها اقتصادا فى الألفاظ .

فاذا شئنا أن نضرب أمثلة لاختزال الوقائع المادية فى القنديل ، وجدناها فى الوصف السريع الأنيق لميدان السيدة زينب ، حيث يلقى الفنان أمامنا بمجموعة من الصور منتقاة بعناية ، تمثل نواحى من حياة الميدان ، تسندها وتدعمها تنف

من نداءات الباعة وحوار السكان ، وبعض التأملات ترد على لسان راوى الحكاية ..

* * *

هنا نجد ريشة يحيى حقى تجرى رشيقة كجنية ساحرة . تعابث هذا ، وتخبث على ذاك ، تلقى بنورها هنا وتبقى ظلا هناك ، وتكتسح الميدان كله فى لحظات ثم تقوم عنه فاذا أمامنا لوحة فنية رائعة للميدان لم تكلف الفنان سوى ضربات قليلة بالفرشاة .. ضربات تبدو لأول وهلة مفككة لا منطق لها ، ولكنها حينما تكتمل الصورة منتظمة تماما فى اطار عام يحدده أول ما يحدده موقف اسماعيل مما يدور فى الميدان ، وشعور التعاطف العميق الذى يجده البطل بازاء بيئته ، وهى بيئة يصفها يحيى حقى بأن لها مقدرة عجيبة على التسلل الى القلب والرسوب فى أعماقه حتى لتصبح فى كل يوم قوام هذا القلب .

وان أردنا مثلا أشد من هذا وضـوحا على الاختزال والتركيز وسرعة الحركة فى القنديل فانا لا شك واجدوه فى وصف وداع الأسرة لاسماعيل ، وهو يتأهب للسفر .. ان هذا الوصف يأتينا عن طريق استرجاع اسماعيل لما حدث اذ ذاك ، ويدونه يحيى حقى فى سطور قليلة هىأشبه ما تكون

بعناوين سلسلة من الصور وضعت جنبا الى جنب على هذا النحو : وداع الأسرة وما أمرّه فى الدار وسط النحيب والبكاء ، والمحطة والقطار ، ثم الميناء وحركته ، والباخرة المجهولة وصفيرها ، ثم يصعد سلم الباخرة شاب وقور بطىء الحركة غرير أكرش يحمل فى أمتعته قبقابا وسلة ملأى بالكعك و « المنين » ..

أما أثر التركيز فى وضوح الحركة الروحية ، فان خير أمثلته فى القنديل أربع صفحات من القطع الصغير مكتوبة بحروف كبيرة ، وصف فيها المؤلف الأثر الروحى المدمر الذى تركته مارى فى نفس بطله .. لقد أعطانا فى هذه الصفحات الأربع تقريرا روحيا كاملا عما حدث لاسماعيل ، ومع هذا فان ما جاء خلال هذا التقرير من ذكر لوقائع مادية ملموسة لم يتعد اشارة عابرة لرحلة لاسكتلندا مشيا ، وعلى دراجة ، اصطاد فيها الرفيقان السمك وذاقا فيها ألوانا من متع الحب.. هنا يكاد المؤلف يستبعد تماما الواقع المادى فى سبيل تسليط الأضواء على الأحداث الروحية للبطل .

* * *

ويذهب يحيى حقى الى استخدام الصورة وسيلة فعالة للتعبير عن معانيه فتضفى الصور المتعددة التى يستخدمها على

فنه جمالا ، وتضمن له مزيدا من التركيز . انظر الى وصفه لحدب الأسرة على اسماعيل ، طالبا ورعايتها له . انه يستعير لوصف هذه الرعاية ، صورة الدجاجة القلقة ذات النظرة المتجسسة الحذرة ترقد على بيضها مشلولة الحركة ذليلة العين كأنها راهبة تصلى » ..

فاذا عاد اسماعيل الى مصر بعد غيبته الطويلة رأى بلاده واحة ممدودة الى البحر لا تفخر الا بانبساطها .. وحياه عند وصوله الى الوطن مخلوق الكون كله وطنه ، طائر أبيض منفرد يحوم حول السفينة . طليق متعال نظيف وحيد . واذا وقفت الباخرة بالميناء ورن فيها جرس التنبيه ، رأى يحيى حقى فى الجرس ايذانا بموت الباخرة ، ثم أصبحت جثتها فريسة لجيش من النمل البشرى يهاجمها . جنود وضباط واخواننا المحتلون .. وحمالون وصيارفة وزوار .

بأمثال هذه الصورة يخدم يحيى حقى فنه ويكسبه وضوحا وتركيزا ويسبغ عليه جمالا شاعرياً أخاذا .

* * *

وثمة نتيجة فنية أخرى تنبنى على ظاهرة تقديم الحياة الروحية على المادية فى القنديل .. تلك هى عدم قيام الحاجة الى رسم السمات الخارجية للشخصيات وصفاتها على نحو

ما نجده فى المدرسة الواقعية . ان أهم ما يدور فى القنديل يدور فى أرواح الشخصيات وعلى هذا لا يجد الكاتب نفسه ملزما برسم شخصياته من الخارج ، بل هو يقصر اهتمامه على محاولة التعمق فى أرواحها وعقولها . ان هذا القول لا ينطبق على الشخصيات الثانوية فحسب ، (وهذه يمكن القصد فى الاحتفاء بها حتى فى المدرسة الواقعية) بل نراه ينطبق أيضا على اسماعيل الذى نبحث طويلا فى القنديل عن صفحات ظاهرية ترسمه لنا وتعيننا على تخيله فلا نجد . كل ما نظفر به فى هذا الصدد يذكره المؤلف لكى يزيد فى ابراز جانب أو آخر من جوانب الحياة الروحية لاسماعيل فهو يذكر فى آخر الحكاية أن اسماعيل أصبح قرب وفاته ضخم الجثة مستكرشا أكولا نهما كثير الضحك والمزاح .. ملابسه مهملة تتعثر على أكمامه وبنطلونه آثار رماد سجائره .. هذه التفاصيل المادية لا تذكر لذاتها بل يريد المؤلف بها أن يؤكد حقيقة معينة هى أن اسماعيل كان يتمتع فى أواخر أيامه بحالة قبول ورضى روحانيين انعكسا على ظاهره فجعلاه يحب الحياة كل هذا الحب ويرضى عن نفسه الرضى الذى يستطيع معه أن يهمل مظهره بين الناس .. واثقا مع ذلك من حسن رأيهم فيه .

ونفس هذه الحقيقة — حقيقة أسبقية الحياة الروحية على المادية فى القنديل تجعل من اسماعيل الشخصية الوحيدة المتطورة روحيا . كل التغيير يحدث فيه هو وحده .. أما باقى الشخصيات فهى مثبتة جامدة . الأب ، والأم ، وحتى فاطمة النبوية ، التى تقف ساكنة منتظرة حتى ينتهى اسماعيل من مغامراته الروحية ، ويصبح أهلا لأن يتزوجها .

وظاهرة أخيرة فى فنية القنديل تنبع من أسبقية الروح على المادة فيه ، هى بروز أهمية التعليق . وهى ظاهرة نجدها فى كل عمل فنى يستهدف لفت أنظار البشر الى حكمة أو فلسفة ما .

والتعليق فى القنديل يتخذ أشكالا طريفة متنوعة ، فتارة يقوم به راوى القصة بطريقة غير ملحوظة تجعله — أى التعليق — جزءا من القصة نفسها . وأمثال هذا اللون كثير فى القنديل .

وأحيانا يتجه الراوى بتعليقه الى جمهور القراء مباشرة فيقول مثلا معلقا على تجاهل اسماعيل لفاطمة النبوية : « من ذا الذى يقول لاسماعيل : تنبه الى هاتين اليدين . كيف دبت فيهما خلسة حياة غريبة وحساسية يقظة ولمس متعرف؟..

الا تفهم ؟ . ألا تفطن الى أن دليل اقتراب عاهة العمى فى السليم هو أن تبدأ يده فى الابصار ؟ .. » .

هنا يقوم التعليق بوظيفتين على الأقل .. أولاهما وصف علاقة فاطمة باسماعيل وموقفه منها .. والثانية التمهيد الفنى لعمى فاطمة ، وهو العمى الذى سيحدث بعد سبع سنوات ، وهذا بالطبع الى جوار أن التوجه بالتعليق الى الجمهور مباشرة حيلة فنية معروفة ترمى الى زيادة ربط الجمهور بالعمل الفنى .

وأحيانا ثالثة يأتى التعليق على شكل كورس هو أشبه الأشياء بالكورس المعروف فى المسرحية اليونانية القديمة .. ومن أمثال هذا التعليق الكلام التالى ، وهو كلام يفترض راوى القصة أن أسرة اسماعيل ستقوله حينما تعلم بعودة الابن اسماعيل من سفره الطويل :

« أقبل يا اسماعيل فانا اليك مشتاقون ... لم نرك منذ سبع سنوات مرت كأنها دهور .. كانت رسائلك المتوالية، ثم المتراخية لا تنفع فى ارواء غلتنا .. أقبل الينا قدوم العافية والغيث ، وخذ مكانك فى الأسرة فستراها كالآلة وقفت بل صدأت لأن محركها قد انتزع منها .. آه ! . كم بذلت هذه الأسرة لك .. فهل تدرى ؟ » .

هذا التعليق يخدم جملة أغراض .. انه أولا يعطينا معلومات عن علاقة اسماعيل بأسرته أثناء غربته .. فثم حماس للكتابة للأسرة لا يلبث أن يفتر ثم يصف التعليق اللهفة الشديدة التى تشعر بها الأسرة كلها أثناء غياب الابن الوحيد، ويؤكد عظم مكانة الابن عند الأسرة وفداحة التضحية التى قامت بها لتمكينه من اتمام تعليمه . وهذا كله يثير عطفنا على الأسرة ويجعل فجيعتها التالية فى الابن حينما يثور عليها وينكرها أفعل فى نفوسنا وأفدح وقعا . وفى الوقت نفسه تتمتع بالغنائية الرقيقة التى نجدها فى كلام هذا الكورس الذى يقرب كثيرا أن يكون شعرا بل لا ينقصه كى يصبح كذلك الا أن يطبع على هيئة شعر .

* * *

هذه بعض مظاهر فنية قنديل أم هاشم وهى جميعا تؤكد حقيقة نقدية هامة ، ذلك أن مضمون العمل الفنى هو الذى يحدد شكله ووسائله . لقد حدد مضمون القنديل اللون الفنى للعمل فجعله اللون الرمزى دون الواقعى ، وحدد كذلك طريقة رسم الشخصيات ورسم النمط الذى تنتقل وفقه القصة من مستواها الواقعى الى المستوى الرمزى كما جعل

للتعليق بأنواعه : المباشر والخطابى والغنـائى والفـردى والجماعى أهمية خاصة . أن القنديل مثل طيب من أمثـلة الالتحام العضوى بين المضمون والشكل ، وهذا يعنى فى المحل الأول أنه عمل فنى متكامل .